بقلم : الدكتور / سهام راشد عثمان
مدرس الادب بكلية الاداب بسوهاج *

" جوانب إنسانية عند الصعاليك "

الإنسانية كلمة واسعة الدلالة ، غير محصورة الفكرة ، قد تدل على كل ما يقترن في أذهاننا من السمو بالحياة البشرية ، ومن الممكن أن يندرج تحتها فكرة الرحمة بالضعيف ، ومواساة العاجز الفقير ، فيعم بين الناس دفع الضرر عن إخوانهم ، والتعاطف معهم تعاطف الأخ مع أخيه ، فلا يكون هناك بائس ولا بؤس ، ولا حاقد ولا حقد ، وإنما يكون التآزر والتعاون بين الناس حتى كأنهم جسد واحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى (١) .

والنزعة الإنسانية بهذا المفهوم لا نستطيع أن نجدها في أشعار الصعاليك ، وإن كانت تبدو معثرة في أبيات متفرقة ، إلا أننا نلمح في مثل هذه الأبيات لمسات إنسانية عالية ، ونبضات تفيض بالحب والتعاطف والرحمة والعدل ، والسماحة والبذل والعطاء ، وما إلى ذلك من فضائل إنسانية يجب على كل إنسان أن يتحلى بها .

وربما كان من دواعي الاستغراب أن يتصف بهذه الجوانب الإنسانية فئة من الناس ، "يستواها تحت مستوى الكلاب" ، أو مسحوقة على حد تعبير برناردشو ، فئة عاشت على السلب والنهب والإغارة ، حياة يجللها الفقر والبؤس والحرمان ، كالصعاليك .

ولو حاولنا دراسة نفسية هؤلاء الصعاليك من الناحية الإنسانية لوجب علينا الكشف عن الدوافع التي دفعت بهم إلى مثل هذا السلوك المخالف للنهج القويم في جانب من حياتهم ، والعامل الأخلاقي الشديد التأثير في تعديل نزعاتهم من جانب آخر ، بغض النظر عن تبرير الأخطاء أو تبرئة المخطئين ، فنحن بإزاء موقف إنساني نضطر فيه إلى تقبل الصالح والطالح على السواء (٢) .

---

(١) انظر : د . شوقي ضيف : دراسات في الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ، الطبعة السابعة ، ١٩٧٩م ، ص ٥٩ .
(٢) انظر : رالف بارتون بري : إنسانية الإنسان ، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي ، بيروت ، مكتبة المعارف ، ١٩٦١م ، ص ٣٢ .

فيما لا يقل الشاعر أن حياة الصعاليك كانت بمثابة التعذيب النفسي الذي يواجهون به في كل لحظة ووقف ، إذ فرض عليهم أن يعيشوا حياة العبيد الأذلاء في مجتمع يضع على كل مستوى الحواجز والمسافات الاجتماعية بين الإنسان والإنسان . ويعبر هذه الهوة كان من الصعب أن تنمو العلاقات الشخصية نمواً سليماً ، لذا اشتعلت الثورة في نفوس الطبقات المطحونة المنبوذة من الانتساب للنسب الشريف ، والذين فُرض عليهم أن يعيشوا حياة العبيد الأذلاء أو الأسرى المملوكين كما قلنا ، على الرغم من أنهم أبناء للقبيلة كالآخرين ، إلا أنهم ولدوا من إماء أسيرات ، ففقدوا بذلك إحساسهم بذواتهم ، ودفنت طموحاتهم وآمالهم بين مرابض الإبل وحظائر الأغنام .

كذلك جماعة الغربان الذين جنى عليهم لونهم الأسود فكان سبباً رئيسياً في لفظ المجتمع لهم ، ليصبحوا طبقة مطحونة مهانة مدوفة بالسواد [1] — على حد تعبير الدكتور عبده بدوي — مما جعلهم يشعرون بالانسلاخ عن الآخرين ، وأنهم دخلاء على المجتمع ، لا يمثلون سوى غبار عالق بأهداب نسيجه .

أيضا طائفة الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم ، ليكون الخلع علاجا للجريمة ، ويكون المخلوعون أمثولة لغيرهم ممن قد يحملون ضمائر خائرة ، حتى يعيش الناس آمنين في نفوسهم ، مطمئنين أحدهم الى الآخر .

هذا الخلع جعلهم يشعرون بضعفهم وتفاهة قيمتهم بالنسبة لبقية أفراد القبيلة ، كما جعلهم يشعرون بحرمانهم من عضويتهم في هذه القبيلة ، وبالاستمتاع بحياة الحرية والعيش في أمن وطمأنينة وكرامة ، بل إن شعورهم بأن وجودهم في الحياة ذو قدر ضئيل كان كافيا لأن يخل توازنهم اذا أحاطت بهم ظروف الحياة القاسية الكئيبة ، أو أضنهم الجوع ، ذلك أن الانسان لا " يطيق أن يكون فردا مفردا ، بعيدا عن الكل ، ناشزا عن المجتمع " [2] .

فالقبيلة إذن هي التي دفعتهم إلى مثل هذا السلوك غير السوي ، إذ بدلاً من أن تأخذ بأيديهم ، وترتفع بهم ، وتشعرهم بشيء من العطف ، وتعطيهم قيمة في ذاتهم ، نبذتهم من رحمتها ، مما كان له رد فعل عدواني ، وعنف وجموح أشد خطرا من

---

(١) د . عبده بدوي : الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ ، ص ٢٢٣ .

(٢) محمد كامل النحاس : سيكولوجية الضمير ، دار الفكر العربي ، ص ٨٣ .

جموحهم السابق ، وحقد وكراهية للقبيلة ، كما جعلهم يشعرون بميل كبير للحرية التي حرموا منها .

وأمام وطأة هذه الظروف القاسية لم يجد الصعاليك سبيلاً سوى هجر هذا المجتمع الجائر ، ونفوسهم تفيض عليه موجدة وحقداً ، إلى مجتمع آخر يستطيعون فيه الانتقام ممن ظلمهم بكل أساليب الصعلكة من غزو وسطو وقطع للطرق .

علماً بأن نزعة حب الغزو ، والغارات التي تميزت بها نفوسهم ، لم تكن نتيجة لنزعة تخريبية هدفها تحقيق مطامع فردية ، بل هي غريزة المحافظة على الحياة وكرامة النفس ، فلم يكن الشر دينهم الذي ينقادون بأمره «إذ لا وجود للشر ، لأنه ليس ثمة " مكروب معين يفرز الشر في أوصال هذا العالم " [1] . كما أنهم ليسوا كما ذهب نالينو إلى القول بأن " أخلاقهم وعوائدهم أترب للهمجية المحضة " [2] .

والذي نود أن نصل إليه أن الصعاليك أناس طبيعيون ، نشأوا تحت ظروف تميزت بالقهر ، فتغيرت ميولهم واتجهت بهم هذه الوجهة غير السوية ، ذلك أن ما يغير ميول الإنسان الطبيعية ويحولها ليس هو الحالة الأصلية للإنسان ، وإنما حالة المجتمع وما يولده من تفاوت ولا مساواة " [3] .

وهذا ما عبر عنه تأبط شراً في قوله محتجاً في أسى بالغ :

ولا أتمنّى الشرَّ والشرُّ تاركي ∴ ولكنْ متى أُحْمَلْ على الشرِّ أركبُ

ولو أخذ المجتمع بأيديهم ، وأنقذهم من وهدتهم لخفت صوت التمرد داخلهم ، وازداد شعورهم بالعضوية القومية ، وكانوا خيراً لقبائلهم ، ولكنهم لم يجدوا من ينتشلهم من الموت المحقق جوعاً ، فتحولوا إلى وحوش تفتك بمن لفظهم وازدراهم ، وها هو أحد شعرائهم يقول من منطلق القوة تحفظ الحياة :

إذا أنتَ لم تَنفَعْ فَضُرَّ فإنَّما ∴ يُرجَّى الفتى كَيْما يضرُّ وينفعُ [4]

---

(١) د . زكريا ابراهيم : مشكلة الانسان ، القاهرة ، ص ١٠٧ .

(٢) كارل نالينو : تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠م ، ص ٧٢ .

(٣) د . محمود رجب : الاغتراب سيرة ومصطلح ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م ، ص ٧٧ .

(٤) د . عبدالحليم حفني : شعر الصعاليك ، منهجه وخصائصه ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٩م ، ص ٢٥٩ .

ومع ذلك نستطيع أن نقول : إن العامل الأخلاقي المتأصل في ذواتهم كان له تأثير قوي في نزعاتهم الإنسانية الخيرة ، فنرى مجتمع الصعاليك يسود فيه التشابه التام بين أعضائه على البعد بينهم ، وتنمو بينهم وبين أولئك الذين يعيشون نفس المأساة من الصعاليك أمثالهم العلاقات الشخصية نمواً سليماً ، لذا تقاربت مشاعرهم ، والتحمت عواطفهم ، وسادت بينهم المشاركة الوجدانية التي عزت بينهم وبين قبائلهم التي سلبتهم حريتهم ، وتنكرت لهم ، وهذا يفسر لنا النزعة الخيرة الإنسانية بينهم وبين أولئك الذين يشاركونهم نفس المأساة ، فنحن كما يقول "روسو" : لا نتعاطف مع مصائب الآخرين إلا إذا عرفنا أننا قد نعاني نحن أنفسنا المصائب "[1] ، فالضغوط النفسية المشتركة ، والتجانس النفسي بينهم ، أدى إلى زيادة الترابط ، وتقوية أواصر الصلة والإحساس المتبادل ، مما نمّى عندهم نزعات الشفقة والرحمة والجود والإحساس بالفقير والمظلوم ، فإذا هم يتمتعون بنفس كريمة ، ويد سخية ، واستعداد دائم للتضحية في سبيل الضعيف والمحتاج ، الأمر الذي عزز حياتهم الروحية والمعنوية ، فإذا هم على الرغم من عدوانهم يسلكون سلوكاً اجتماعياً طيباً ، وعلى قدر ما يعتدون على الغني الموسر ، ينصرون الضعيف ، ويردون عنه أي عدوان يقع عليه ، بل نراهم يسرقون وينهبون ، وفي الوقت نفسه يعطفون على البائس ، ويساعدون الضعيف ، حتى يبدو وكأنهم يسيرون في الحياة على غير هدى ، لا يعرفون أين يتجهون ، ولا على أي أرض يثبتون أقدامهم .

هذه الظروف القاسية كانت المرآة التي كشفت عن هذه الأخلاق النبيلة التي تمتعت بها هذه النفسية العربية [2] ، بجانب ما تمتعت به من إرادة قوية ، ما كان لها أن تظهر إلا في مثل هذه البيئة المتقلبة الأحوال " إذ لن يكون هناك فضل لشجاعة أو همة أو جود لو زالت المخاطر "[3] .

وهكذا بدلاً من أن تحملهم الظروف القاسية إلى الأنانية والبخل دفعتهم إلى التضحية والبذل والجود لإقالة عثرات البائس دون توقع عوض أو إثابة أو شكر ، والجود على ذلك مع

---

(١) د . محمود رجب ، الاغتراب سيرة ومصطلح ، مرجع سابق ، ص ٨١ .

(٢) انظر : د . مصطفى فهمي : أبحاث وخطرات ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ ، ص ١٦١ .

(٣) عباس محمود العقاد : جميع الأحياء ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٢ .

ضيق ذات اليد يعد من أفضل الأعمال الإنسانية .

لقد كان شعر الصعاليك بعامة وشعر عروة بن الورد بصفة أخص ذا " وظيفة اجتماعية " [1] يعبر عن هموم النفس وإصلاح المجتمع ، فالمرء يفنى مودِّعاً هذه الحياة، فلا يتبقى له فيها سوى أحاديث الإباء والكرامة ممجدة ذكراه :

أحاديثُ تَبْقَى والفَتَى غيرُ خالدٍ إذا هُوَ أمْسَى هامةً فوقَ صيرِ [2]

فلم تمنع الصعلكة شاعراً صعلوكاً معروفاً بالإغارة والسلب من أن يجعل من غاراته وغنائمها سبيلاً إلى البر بالفقراء ، لأنه يرى أن عليه واجباً وفي عنقه حقاً للفقير يدفعه إليه ولو من مال الغارات التي يشنها على الأغنياء :

دَعيني للفَنَى أطوف في البلاد لعلني أفيد غنى فيه لذي الحق محمل
أليس عظيماً أن تلم ملمة وليس علينا في الحقوق المعول؟ [3]

وإذا كان الصعاليك يرون الجود فرضاً وواجباً وضرورة تقتضيها ظروف الحياة الصعبة لحفظ الحياة من الهلاك ، فإن الجود عند العرب يبدو — في بعض الأحايين — وكأن الدافع إليه المباهاة والفخر ، يصقلون به حسبهم كما نرى مثل ذلك في قول أبي تمام :

لا جُودَ في الأقوامِ يُعْلَمُ ما خَلَا جوداً حليفاً في بني عُقَّابِ
متدفقاً صقلوا به أحسابَهم إنَّ السَّماحَةَ صيقلُ الأحسابِ [4]

أو كما نرى مثل ذلك أيضاً عند ابن الأهتم السعدي وقد لامته زوجته على إسرافه في جوده :

ذريني وحظي في هواي فإنني على الحَسَبِ الزَّاكي الرفيعِ شفيقُ [5]

---

(١) سعد اسماعيل شلبي : الأصول الفنية للشعر الجاهلي ، القاهرة ، مكتبة غريب ١٩٧٧م ، ص٤٤ .
(٢) أبوزيد القرشي : جمهرة أشعار العرب ، تحقيق / علي محمد البجاوي ، القاهرة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ص ٤٥٢ .
(٣) محمد عبدالغني حسن : في صحبة الشعر والشعراء ، دار الهنا للطباعة ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٤٢ .
(٤) أبوتمام : الحماسة ، القاهرة ، ١٣٢٥هـ ، ج ٢ ، ص ٤١٣ .
(٥) كمال اليازجي : النوازع الخلقية في الشعر العربي القديم ٢ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ص ١٩٣ .

ولاشكَّ أن الإحساس بالغير ، ومحاولة الأخذ بأيديهم ، والتخفيف عن آلامهم هي عاطفة إنسانية نبيلة مارسها الشعراء الصعاليك وتجلَّت في أشعارهم ، فعروة بن الورد كان إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع أشباه هؤلاء من دون عشيرته ، ثم يحفر لهم الآبار ، ويكنف عليهم الكنف ويكسبهم ، ومن قوي منهم إمَّا مريض يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته ، خرج به معه فأغار وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيباً ، حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ، ألحق كل إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى "(١) .

وقد أضفى عروة بن الورد على الصعلكة كثيراً من الاحترام والتقدير بما تجلى به من خلق فريد في السخاء والعطف على الفقراء ، حتى أصبح الصعاليك محط إعجاب الناس ، وأمنية القبائل ، وهذه النزعة الإنسانية النبيلة عند عروة هي التي حدت بعبدالملك ابن مروان إلى القول : " من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد " وقال عنه معاوية بن أبي سفيان : " لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج اليهم "(٢)

وتحمل أبياته الآتية قيمة إنسانية كبرى ، حيث نرى إيثار الغير ، والرحمة والعطف على الفقير ، والتضحية بالنفس ، يقول :

إنِّي امرؤٌ عافي إنائي شركةٌ ... وأنتَ امرؤٌ عافي إنائكَ واحدُ
أتهزأُ مني أنْ سمنتَ وأنْ ترى ... بجسمي مس الحقِّ والحقُّ جاهدُ
أُقسِّمُ جسمي في جسومٍ كثيرةٍ ... وأحسو قراحَ الماءِ والماءُ باردُ(٣)

فهو يعرض نفسه للهلاك كل يوم حتى يجعل لكل منهم نصيباً في هذا الجسد البالي الذي لا ينال إلا شربة ماء في فصل الشتاء الباردة تقدد الأمعاء من أجل أن يوفر لهم ماء ممزوجاً باللبن السائغ للشاربين .

---

(١) محمد الخضري : مهذب الأغاني ، القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٥٠ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .
(٢) أبوالفرج الأصفهاني : الأغاني ، تحقيق ابراهيم الابياري ، طبعة دار الشعب ، ج ٣ ، ص ٩١٩ ، ٩٢٠ .
(٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، القاهرة ، دار الكتب ، الطبعة الأولى ، ١٩٣٠م ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ .

فظروف الحياة السيئة وهموم نفسه لم تنسه هموم غيره ومواجعهم ، فهو لا يعيش لنفسه وإنما يعيش لهؤلاء البؤساء ، يعرض نفسه للمخاطر من أجلهم ، وكثيراً ما لامته زوجته على إدمانه الغزوات والغارات على أحياء العرب ، فردها برفق أن تخلد للنوم والدعة ، أما هو فلا يداعب النوم جفونه ، والقوم يموتون جوعاً ، فلتتركه يجوب القفار فإما كسب رزق يغنيه عن الذلة والهوان ، وإما الموت الكريم ، يقول :

أَقِلِّي عليَّ اللَّوْمَ يا ابنةَ مُنْذِرٍ ... وَنَامِي فإنْ تشتهي النَّوْمَ فاسْهَرِي
ذَريني أَطُوفُ في البلادِ لعلَّني ... أُحَلِّيكِ أو أُغْنِيكِ عن سُوءِ مَحْضَرِي
فإنْ فازَ سهمٌ للمنيَّةِ لَمْ أَكُنْ ... جَزُوعاً ، وهَلْ عَنْ ذاكِ من متأخَّرِ
وإنْ فازَ سَهْمِي كُفِّكُمْ عَنْ مقاعدٍ ... لكُمْ خَلْفَ أدبارِ البيوتِ ومنظرِ (١)

فالصعاليك يتفانون من أجل الآخرين ، وكتب عليهم أن يحملوا أرواحهم في أكفهم ، وما أبخس ذلك ثمناً في سبيل الإحساس بالذات ، وإضفاء السعادة على الآخرين ، ومداواة جراحهم ، ولم يكن الإحساس بالفقراء ونجدتهم من صفات عروة فقط ، ولكنها سمة اتسم بها جلُّ الصعاليك ، وها هو عمرو بن براقة الهمداني يقول :

تَقُولُ سليمى لا تَعَرَّضْ لِتَلْفَةٍ ... ولِلَّهِ عَنْ لَيْلِ الصَّعَالِيكِ نائِمُ
وكَيْفَ يَنامُ اللَّيْلَ مَنْ جُلُّ ما لَهُ ... حُسامٌ كلونِ المِلْحِ أَبْيَضُ صَارِمُ
صَحُوتُ إذا عَضَّ الكَرِيهةَ لَمْ يَدَعْ ... لَهَا طَمَعاً طَوْعُ اليَمِينِ مُلَازِمُ
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الصَّعَالِيكَ نَوْمُهُمْ ... قَلِيلٌ إذَا نَامَ الدَّثُورُ المُسَالِمُ (٢)

وهذا " مالك بن الريب " ـ وقد عاش في خلافة معاوية بن أبي سفيان ـ يسأله الوالي : ويحك يا مالك ، ما الذي بلغني عنك من العداء وقطع الطريق ؟ !

أجاب : أصلح الله الأمير ، العجز عن مكافأة الإخوان .

ولهذا قيل : " إن كل صعلوك جواد " (٣) .

---

(١) أبوزيد القرشي : جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والاسلام ، ص ٤٥٠ ، ٤٥١ .
(٢) أبوالفرج الأصفهاني : الأغاني ، تحقيق عبدالكريم ابراهيم العزباوي ، ومحمود محمد غنيم ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ج ٢١ ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .
(٣) مجيد طوبيا : شعراء يثيرون الدهشة والتساؤل : الصعاليك ، مقال بمجلة الدوحة ، العدد ١٢٨ ، أغسطس ١٩٨٦م ، ص ٤٣ .

ولا شك أن إضفاء السعادة على الضيف نزعة إنسانية سامية ، ومما يدل على ذلك ما نراه في قصة أبي خراش أحد صعاليك بني هذيل - والتي كان حرصه فيها على إكرام ضيوفه سبباً في هلاكه ، حينما أخذ يهيئ لهم الطعام والذبيحة ، ثم رجاهم أن يحضروا ماء من مكان قريب فأبوا إلا أن يحضره هو ، فنزل على إرادتهم وأحضر الماء ، ولكنه أثناء عودته به تلدغه حية ، ولكنه يتحامل على نفسه فيكمل رحلته بالماء إليهم ، ويزداد تحاملاً فيأبى إلا أن يتم لهم الطعام دون أن يخبرهم حتى لا تفسد عليهم شهيتهم للطعام ، وتبلغ الصورة ذروتها حينما يبيت عندهم وهو يعاني سكرات الموت دون أن يخبرهم بأمر اللدغة ، حتى لا يفسد على أمزجتهم التمتع بضيافته بالنوم الهنيء ، ثم يصبحون فينظرون فإذا هو يحتضر ، ويكون ختام ضيافتهم تشييع جنازة أبي خراش ، وقد عقب عمر بن الخطاب بعد ذلك على قصة أبي خراش وأضيافه المنيين بأنه لولا أن تذهب لأمر ألا يستضاف بمنى بعدها أبدا "[1].

بل قد تذهب المبالغة ببعضهم إلى حد استضاف الوحوش ، فالمشاعر الإنسانية تتفجر في قلوبهم ، فلا يفكرون فيمن حولهم من أهلهم والمحيطين بهم فقط ، بل نراهم يتجاوزون ذلك إلى الوحوش في البراري ، فيشفقون عليها ، ويتعاطفون معها ، لذلك نراهم يؤنون لها ويبلغون القمة في "صدق الإحساس وعمقه "[2]. فالشنفرى يوصي أصدقاءه بألا يدفنوه في التراب ، بل يتركوه للضباع توسعة عليها [3] ، لعلها تجد في جسده البالي وجبة شهية تقيها غائلة الجوع :

لا تُقْبِرُونِي إِنَّ قَبْرِي مُحَرَّمٌ ... عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرِ[4]

ومن ملامح الروح الإنسانية في شعر الصعاليك الدعوة إلى العدل والحرية والبذل والعطاء ، فتحدثوا بحسرة عن حرمانهم من أمنية البذل لضيق حالهم .

لقد خرجوا للحياة فوجدوا أهلها بين أناس يموتون تخمة وآخرين يموتون جوعاً ، وقد ر

---

(١) البغدادي : خزانة الأدب ج ١ ، ص ٢٩٧ ، نقلا عن : د . حفني ناصف : شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩م ، ص ٤٨ .

(٢) د . يوسف خليف : دراسة في شاعر الحب والصحراء ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٠م ، ص ٥ .

(٣) د . عبد الحليم حفني : شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، ص ٢٧٠ .

(٤) د . عبد الحليم حفني : لامية العرب للشنفرى ، القاهرة ، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ، ١٩٨١م ، ص ٢٩ .

لهم أن يكونوا من هؤلاء الآخرين ، لذا حملوا على عاتقهم أن يأخذوا من الظالم للمظلوم ، ويسلبوا الأشحاء ما يملكون ، تحقيقاً للعدل الذي غاب في ظلمات الجهل والعصبية ، وقد انعكس أثر ذلك على أشعارهم ، فإذا بها تعبر عن مثالية لا تقل روعة عن مثالية وشجاعة أولئك " السراة المغاوير " (١) .

فقد صوروا مستوى إنسانياً رفيعاً من البرّ بالضعفاء والمحتاجين ، وبذل النفس في سبيل نصرتهم ، ومنحهم حق الحياة الكريمة كغيرهم من البشر ، لذا تحدثوا كثيراً عن الفقر والعوز ، وألموا بالمقابلة والموازنة بين منزلة الغني ومنزلة الفقير بين الناس . يقول عروة بن الورد :

دَعيني لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنَّنِي ... رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمُ الفَقِيرُ
وأهوَنُهم وأحقرُهُم لَدَيْهِمْ ... وإنْ أَمْسَى له كَرَمٌ وخِيرُ
وَيُقْصَى فِي النَّدى وتزدريهِ ... حليلتُهُ وَيَنْهَرُهُ الصَّغِيرُ
وتلقى ذا الغِنَى وَلَهُ جَلالٌ ... يكادُ فؤادُ حاجبِهِ يطيرُ
قليلٌ ذنبُهُ والذَّنْبُ جَمٌّ ... ولكن الغنى ربٌّ غفورُ (٢)

ويرى مالك بن حريم أن المال يرفع الخسة ، ويجعل الذميم حميداً ، وأن الفقر مذلة لصاحبه بين الناس ، يقول :

أُنْبِئْتُ والأَيامُ ذاتُ تجارب ... وَتُبْدِي لكَ الأَيَّامُ ما لَسْتَ تعلمِ
بأنَّ ثَرَاءَ المالِ ينفعُ ربَّه ... ويُثْنِي عليه الحَمْدَ وَهْوَ مُذَمَّمِ
وإنَّ قليلَ المالِ للمرءِ مُفْسِدٌ ... يَحُزُّ كما حَزَّ القطيعَ المحجَّمِ
يَرَى درجاتِ المجدِ لا يستطيعُهَا ... ويقعُدُ وَسْطَ القومِ لا يتكلَّمِ (٣)

ويحاولون الارتفاع بمستوى قومهم الأخلاقي ، فيرسمون منهجاً واضحاً للأخلاق ويدعون إليها في أشعارهم .

فإذا ما تفشى في القوم خلق قبيح أو صفة ذميمة نراهم يستنكرونها ويدعون إلى

---

(١) انظر : د . زكي المحاسني : شعر الحرب في أدب العرب في العصر الأموي والعباسي الى عهد سيف الدولة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦١ ، ص ٣٥ .
(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٣٤ .
(٣) أبو تمام : الحماسة ، ج ٢ ، ص ٣١ ، ٣٢ ، نقلاً عن د . د . عبد الحليم حفني ، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، ص ١٨٩ .

تركها ، بل هو التخلى عن كل ما يشين أخلاقهم وعقولهم . لذا نراهم يهاجمون بعنف استكانتهم وخضوعهم ، ورضاهم بالذلة والهوان بين الناس ، ويحثون على السعي والعمل حفظاً للكرامة ، فمن المروءة ألا يتقاعس المرء عن السعي ، فإما حياة عزيزة كريمة أو ميتة شريفة ، يقول تأبط شراً :

إذا المرءُ لم يختلْ وقد جدَّ جدُّهُ ... أضاعَ وقاسَى أمرَهُ وهوَ مدبرُ (١)

ويقول أيضاً :

فلا تصلى بصعلوكٍ نؤومٍ ... إذا أمسى يعدُّ منَ العيالِ (٢)

فالموت عندهم أفضل من حياة خاملة مهينة ، يقول عروة بن الورد :

وما طالبُ الحاجاتِ منْ كلِّ وجهةٍ ... منَ الناسِ إلاَّ منْ أجدَّ وشمَّرا

فسِرْ فى بلادِ اللهِ والتمسِ الغنى ... تعيشْ ذا يسارٍ أوْ تموتَ فتعذرا (٣)

ويرسم لوحة إنسانية بديعة فى الموازنة والمقابلة بين حياة صعلوك بليد خامل الإحساس والشعور يتحسس سقط الطعام ، وينحت رؤوس العظام ، ويرى فوزه فى قوت ليلة يلقى إليه من غنى موسر ، يملأ بطنه مساء ، وفى الصباح يفرغ ما علق بجسده من حصى ، ولا يجد عملاً سوى أن يقضى نهاره فى الأعمال الوضيعة الحقيرة فى خدمة النساء ، ثم يمسى متهالكاً كالبعير ، يقول :

لَحَى اللهُ صُعْلُوكاً إذا جنَّ ليلُهُ ... مَضَى فى المشاشِ آلفاً كلَّ مجزرِ

يُعدُّ الغِنَى فى نفسِهِ قوتَ ليلةٍ ... أصابَ قِراها منْ خليلٍ مُيسَّرِ

ينامُ عشاءً ثمَّ يُصبحُ قاعداً ... يحتُّ الحصَى عنْ جنبِهِ المتعفِّرِ

يعيرُ نساءَ الحيِّ ما يستعِنَّهُ ... فيُمسِى طليحاً كالبعيرِ المحسَّرِ (٤)

وفى مقابل هذه الصورة يلم بصورة أخرى لصعلوك آخر أبى عزيز النفس يأبى الذل والهوان ولا يخشع لفقره ، وإنما يهب حياته للغزو والغارات ، وتنم طلعته المشرقة عن نفس

---

(١) أبو تمام : ديوان الحماسة ، مطبعة الوهبية ، ١٢٩٣ م ، ج ١ ، ص ١٧ .
(٢) المبرد الكامل : مطبعة الاستقامة ، ج ١ ، ص ٣١٠ .
(٣) عروة بن الورد : ديوانه ، مطبعة السعادة ، ص ٩٩ .
(٤) أبو زيد بن الخطاب القرشى ، جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والاسلام ، تحقيق على محمد البجاوى ، ص ٤٥٣ .

منبسطة ، تغنى من أجل الآخرين ، مثل ذلك الصعلوك إن مات مات شريفاً ، وإن عاش فجدير به أن يستغنى كى يبعث بدمائه الحياة فى نفوس وأجساد الآخرين :

وَلِكِنَّ صُعْلُوكاً صفيحةَ وَجْهِهِ ... كَمِثْلِ شِهَابِ القَابِسِ المُتَنَوِّرِ
مُطِلاً على أعدائِهِ يَزْجُرونَهُ ... بِسَاحَتِهِمْ زَجْرَ المَنِيحِ المُشَهَّرِ
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَ المَنِيَّةَ يَلْقَهَا ... حَمِيداً وَإِنْ يَسْتَغْنِ يَوْماً فَأَجْدِرِ (١)

ولا شك أن انتقاد الشعراء الصعاليك لمساوئ قومهم ومحاربتها ، ومحاولة الارتفاع بهم ، وغرس بذور المثالية فى نفوسهم ، لا شك أن كل ذلك ينم عن نزعة إنسانية فجرتها ظروف حياتهم القاسية والظلم الواقع عليهم ، والتشاكس مع القبيلة الذى نمّى بدوره عندهم شعورهم بذواتهم ، وضرورة الارتقاء والسمو بها وبإخوانهم .

ولعل احترامهم لأنفسهم وشعورهم بكبر نفوسهم ، هو الذى دفعهم إلى اباء الضيم وعدم إراقة ماء الوجه بالتكسب ، ولم تستطع العوامل القاسية أن تسلخهم منها . فالشنفرى يعبر عن نفوره من إذلال نفسه باستجداء حسنات الناس مفضلاً استفاف التراب على ذلك ، فيقول من اللامية :

وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْ لا يُرَى لَهُ ... عَلَيَّ من الطَّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ
وَلَوْلَا اجْتِنَابُ الذَّأْمِ لَمْ يَبْقَ مَشْرَبٌ ... يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
ولكن نَفْسَاً حُرَّةً لَا تُقِيمُ بِي ... عَلَى الضَّيْمِ إِلَّا رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ (٢)

ويقول أبوخراش فى مثل ذلك :

وإنِّى لأَقْوَى الجُوعَ حَتَّى يملَّنِى ... فيذهبُ لَمْ يَدْنَسْ ثيابى ولا جرمى
مخافةَ أَنْ أَحْيا برغمٍ وذلَّةٍ ... وَلَلْمَوْتُ خيرٌ من حياةٍ على رغمِ (٣)

وان كنا نقع فى الشعر العربى على مثل أشعار الصعاليك ، والتى ينفر أصحابها من السؤال ، وإذلال النفس ، إذ يرون القناعة بالفقر خيراً من سؤال الناس . كقول ابن التعاويذى مثلاً :

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٥٤ .

(٢) د . عبدالحليم حفنى : لامية العرب للشنفرى ، ص ٢٢ .

(٣) السكرى : ديوان الهذليين ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

ذريني فان سؤال الرجـــــال يستكره الطعم مـر المـــذاق
وان القناعة ـ لو تعلمـين ـ على المرء درع من العار واقـــي[1]

ولكن مع ذلك شتان بين أولئك الذين يتعففون عن سعة تمدحا وفخرا ، وبين أولئك الصعاليك أصحاب هذه النفسية العجيبة التي تميزت بأسمى صفات العزة والاباء ، أولئك الذين يستعذبون الموت ، ويتلوون سغبا ، ويتنازعهم الهزال ، ومع ذلك يـــرون عذاب الجوع أكثر احتمالا من عذاب الشعور بالذل ، ودفع النفس للتكسب . ولننظـــر لقول الشنفرى وقد فتك به الجوع فطوى أمعاءه الخاوية :

قليل ادخار الزاد الا تعلـــة وقد نشز الشرسوف والتصق المعـــى[2]

فهذه المعاني الكثيرة التي كرروها في شعرهم ، وأكدوا شعورهم بها من هـــوان الفقير في مجتمعهم ، ومن إيثارهم الموت على ما يلقاه الفقير من هوان وذلة، ومعان أخرى تدل على أن اتجاههم الى الصعلكة لم يكن سببه مجرد الحصول على لقمة العيش ، أو الوصول الى الغنى ، " وانما كان مع ذلك يحمل الرغبة في اثبات كيان لهم في المجتمع ، ويحمل النفور الشديد الظاهر من أن يكونوا مجرد أفراد في القطيع الذي يسوقه الســـادة الأغنياء ، ويحمل الاصرار الشديد على أن يظهروا لأنفسهم كيانا يشعر به الناس على الأقل ، ويحسبوا حسابه ، ان لم يرهبوه[3] .

هذا وقد ضرب الشعراء الصعاليك المثل في السمو بالصداقة والارتقاء بها عن النفعيـــة وتجنب الصداقة التي لا تقوم على الاخلاص والتضحية ، يقول تأبط شرا نابذا مثل هـــذه الصداقة التي لا تقوم على التضحية في الشدائد :

اني اذا ما خلة ضنـت بنائلهـا وأمسكت بضعيف الوصل أحـــذاق
نجوت منها نجاتي من بجيلة اذ ألقيت ليلة خبت الرهط أوراقـــي[4]

والأبيات الآتية لتأبط شرا تحمل أيضا قيمة انسانية كبرى ، حيث تتجلى فيها ساحـة

---

(١) ابن التعاويذي : ديوانه ، القاهرة ، ١٩٠٣م ، ص٣٦ .
(٢) أبوالفرج الأصفهاني : الأغاني ، ج ٢١ ، ص ١٤٥ .
(٣) د . عبدالحليم حفني : شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، ص ٢٠٢ .
(٤) المفضل الضبي :المفضليات ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، وعبدالسلام محمـــد هارون ، مطبعة دار المعارف ، ص ٢٨ .

النفس وكرم الخلق ، اذ نراه لا يعبأ بالحياة الناعمة بين أحضان ذوات الخـــدور ، وانما ما يستحق اهتمامه ويحز فى نفسه أن يفجع بأخ له سباق الى الفضائل ومكـــــارم الأخلاق ، وكسب المحامد ، يركب الليل فى ظلمها على ما يلقاه فى سبيلها من مشقـــة وجهد ، يقول :

ولا أقول اذا ما خلة صرمـــــت ... يا ويح نفسى من شوق واشفـــــاق
لكنما عولى ان كنت ذا عـــــول ... على بصير بكسب الحمد سبـــــاق
سباق غايات مجد فى عشيرتـــــه ... مرجـع الصوت هدا بين أرفـــــاق
عارى الظنابيب ، ممتد ، نواشـره ... مدلاج أدهم واهى الماء غســـاق
حمال ألوية ، شهاد أنديـــــة ... قوال محكمة ، جواب آفـــــاق
فذاك هم وفزوى أستفيث بـــه ... اذا استغثت بضافى الرأس نفـــاق (١)

أما الحب فهو عاطفة انسانية نبيلة تجلت فى أشعار الصعاليك ، والمرأة فـــى شعرهم هى حواء الخالدة ، والزوجة المثال التى تقف دائما وراء الزوج المتفانى من أجل الآخرين ومن أجل فكرته ، فهى ليست المرأة المنعمة المدللة كما تطالعنا فـــى الشعر العربى ، وانما هى نموذج للمرأة الفقيرة ، الكادحة ، المشاركة للزوج فـــى شئون الحياة ، والحاسبة للزمن ألف حساب ، وهى غالبا ما تلومه على كرمه واسرافـه ، أو تعاتبه على مخاطرته بحياته ، ودائما نرى رفض الزوج النصيحة فى رفق وأدب وشفقة ، ويقابل جزعها بابتسامة الواثق بنفسه ، والمعتد بشخصيته " .

يقول عروة بن الورد لزوجه اللائمة :

ذريني أطوف فى البلاد لعلـــنى ... أخلصك أو أغنيك عن سوء معشـــر (٢)

ويقول :

أبى الخفض من يغشاك منذى قرابة ... ومن كل سوداء المعاصم تعـــترى (٣)

فهو لا يخاطر بنفسه الا من أجلها ومن أجل من يغشاها من الأهل ، ومن ينزل بهما من الفقراء .

---

(١) المفضل الضبى ، المفضليات ، مرجع سابق ، ص ٢٨ ، ٢٩ .
(٢) عروة بن الورد ، ديوانه ، ص ٦٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٧١ .

وأوضح ما تكون عفة الصعاليك فيما يتعلق بالمرأة ، ومن نواحى هذه العفة انفرادهم بالغزل فى الزوجة ، مما يوحى بالاتجاه الخلقى المشروع فى عواطفهم . ومن الهضم لحق الصعاليك أن يوصف غزل قط بأنه أعف من غزل الصعاليك ، ولئن كان غزل بنى عذرة قد اشتهر بالعفة ، فان غزل الصعاليك أسبق وأعف " (١) .

فهم يرسمون فى شعرهم منهجا واضحا للأخلاق المثلى ، ويدعون الى التمسك بالأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة التى يجب أن تتوفر فى الرجل والمرأة ، حتى يجعلوا بالأخلاق حصنا منيعا بين النفس وشهواتها ، ويسموا بانسانية المرأة الى الفضيلة والصلاح ، ونبذ الصفات السيئة ، والتحلى بالأخلاق المثلى الفاضلة ، حتى تبدو المرأة هى المثل والنموذج الذى يجب أن يحتذى فى كل زمان ومكان .

العفة

يقول السليك بن السلكة مسجلا النظرة العفيفة التى ينظر بها الصعاليك الى المرأة ، اذ يميزون المرأة المبتذلة المفرطة ، يقول :

لعمر أبيك والأنباء تنحى ... لنعم الجار أخت بنى عوارا
من الخفرات لم تفضح أباها ... ولم ترفع لاخوتها شنارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت ... بنصل السيف واستلموا الخمارا (٢)

وبذلك يكون الحديث عنها عطرا يملأ زوجها فخرا بعفتها ، وترفعها الى ما فوق الشبهات :

أمينة لا يخزى نثاها حليلها ... اذا ذكر النسوان غث وجلت (٣)

مثل هذه الأخلاق النبيلة تجعل الزوج مطمئنا ، هانئا ، ناعم البال لثقته بها :

اذا هو أمسى آب قرة عينه ... مآب السعيد لم يسل أين ظلت (٤)

وتتجلى العفة فى أشعارهم فى المحافظة على أعراض الغير ، وعدم التطاول اليها ،

---

(١) د . عبدالحليم حفنى : شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، ص ٣٣٨ .
(٢) المفضل الضبى ، المفضليات ، الشنفرى الأزدى ، ص ١٠٩ .
(٣) المرجع السابق ، ونفس الصفحة .

وحفظ الجوار ، وعدم التطلع الى الجارة أو ايذائها فى عرضها ، وهذا يعد من أسمى مظاهر العفة والتسامى والانسانية ، فمالك بن حريم يجعل العفة المترفعة عن التعرض للجارة من صفاته الأربع ، يقول :

وثالثة ألا تقذع جارتي ... اذا كان جار القوم فيهم مقذعا (١)

ويتمدحون فى المرأة الوقار والخجل ، والكتم ، والعفة ، يقول الشنفرى :

فيا جارتى وأنت غير ملومة ... اذا ذكرت ، ولا بذات ثقلت
لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها ... اذا ما مشت ولا بذات تلفت
تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها ... لجارتها اذا الهديمة قلت
تحل بمنجاة من اللوم بيتها ... اذا ما بيوت بالمذمة حلت (٢)

وها هو عروة بن الورد أحد هؤلاء الصعاليك ، تصفه زوجه فتقول : " والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خيرا منه ، وأغض طرفا ، وأقل فحشا ، وأجود يدا ، وأحمى حقيقة " (٣) .

وقد انطبع هذا الخلق فى أشعارهم ، فاذا هو يمثل الجوانب المختلفة من النفس الانسانية فى صدق انسانى منقطع النظير ، بعيدا عن التكلف والتصنع ، وتهاويل الخيال " (٤) .

وبعد .. نستطيع أن نقول : ان الشعراء الصعاليك يحملون بين جنباتهم من النزعات الانسانية ما يحملنا على النظر اليهم بعين الاحترام والتقدير .

---

(١) د . عبدالحليم حفنى : شعر الصعاليك ، منهجه وخصائصه ، ص ٣٤٠ .
(٢) المفضل الضبى : المفضليات ، الشنفرى الأزدى ، المفضلية رقم ٢٠ ، ص ١٠٩ .
(٣) محمد الخضرى : مهذب الأغانى ، ج ٢ ، ص ٢٥ .
(٤) انظر : د . محمد مصطفى هدارة : الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى ، النشأة والتطور " ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٨١ م ، ص ٤٥ .

* أهم المصادر والمراجع :

١ ـ أبوتمام : ديوان الحماسة ، ج ٢ ، القاهرة ، سنة ١٣٢٥ هـ .

٢ ـ أبوزيد القرشي : جمهرة أشعار العرب ، تحقيق / علي محمد البجاوي ، القاهرة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر .

٣ ـ ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ج ٣ ، القاهرة ، دار الكتب ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٣٠ م .

٤ ـ ابن التعاويذي : ديوانه ، القاهرة ، سنة ١٩٠٣ م .

٥ ـ أبوالفرج الأصفهاني : الأغاني ، ج ٣ ، تحقيق / ابراهيم الابياري ، طبعة دار الشعب .

٦ ـ رالف بارتون بري : انسانية الانسان ، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي ، الطبعة السابعة ، سنة ١٩٧٩ م .

٧ ـ زكريا ابراهيم : مشكلة الانسان ، القاهرة .

٨ ـ زكي المحاسني : شعر الحرب في أدب العرب في العصر الأموي والعباسي الى عهد سيف الدولة ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦١ م .

٩ ـ سعد اسماعيل شلبي : الأصول الفنية للشعر الجاهلي ، القاهرة ، مكتبة غريب ، سنة ١٩٧٧ م .

١٠ ـ العسكري : ديوان الهذليين ، ج ٢ ، مطبعة دار الكتب المصرية .

١١ ـ د . شوقي ضيف : دراسات في الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ، الطبعة السابعة ، سنة ١٩٧٩ م .

١٢ ـ عباس محمود العقاد ، مجمع الأحياء ، القاهرة ، سنة ١٩٧٨ م .

١٣ ـ د . عبدالحليم حفني : شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٩ م .

١٤ ـ د . عبدالحليم حفني : لامية العرب للشنفرى ، القاهرة ، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ، سنة ١٩٨١ م .

١٥ ـ عبده بدوي : الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٣ م .

١٦ ـ عروة بن الورد : ديوانه ، مطبعة السعادة .

١٧ ـ كارل نالينو : تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصرنا أمية ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٧٠م .

١٨ ـ كمال اليازجي : النوازع الخلقية في الشعر العربي القديم ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت .

١٩ ـ محمد عبدالغني حسن : في صحبة الشعر والشعراء ، دار الهنا للطباعة ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٢٠ ـ محمد الخضري : مهذب الأغاني ، القاهرة ، مطبعة مصر ، ج ٢ ، سنة ١٩٥٠م

٢١ ـ محمد كامل النحاس : سيكولوجية الضمير ، دار الفكر العربي .

٢٢ ـ محمود رجب : الاغتراب سيرة ومصطلح ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٨٦م .

٢٣ ـ مجيد طوبيا : شعراء يثيرون الدهشة والتساؤل .
الصعاليك ، مقال بمجلة الدوحة ، العدد ١٢٨ ، أغسطس ١٩٨٦م .

٢٤ ـ مصطفى فهمي : أبحاث وخطرات ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٣م .

٢٥ ـ د . مصطفى هدارة : الشعر العربي من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجري ، النشأة والتطور ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٨١ .

٢٦ ـ المفضل الضبي : المفضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، عبدالسلام هارون ، مطبعة دار المعارف .

٢٧ ـ د . يوسف خليف : ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٧٠م .